ذخائر الخزائن

الجزء الثاني من

ترسّل الصاحب ضياء الدين بن الاثير

وقفنا على هذا الجزء في خزانة مخطوطات الجامعة الاميركية ببيروت مرقوماً فيها كما يلي M S 892.76 D 62 T A وهو مكتوب في ٢٣٠ صفحة. في كل صفحة نادرة ١٥ سطراً ونادرة ١٤ . وبآخره خرم قليل. وفي اثنائه مواضع أكلتها الأرضة . والفاظ كشطت وغاب رسمها . وفي الورقة الاخيرة كتابة في ظهرها . منها :

« تم الجزء الثاني من ترسل المولى الصاحب ضيآء الدين رحمه الله . بتاريخ غرة صفر من سنة ست وخمسين وستمائة » (١٢٥٨ م) .

وتحت هذه الخاتمة سطر ألصق عليه جزازة من الورق جاء في ذيلها :

« كتاب كتبه الى بعض غلمانه وقد ارسل على يده كتاباً فنرق في الفُراة (كذا) والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه »

ويظهر ان هذه الكتابة هي عنوان اول رسائل الجزء الثالث . فيكون الموجود من هذا الديوان الثاني فقط . ولا يعرف اين خزانة ام اين ارض اشتملت على الجزئين الاول والثالث.

وابن الاثير هذا هو نصرالله بن محمد مصنف كتابَي « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » ، « والوشي المرقوم في حل المنظوم » المطبوعين . وهو ثالث الاخوين : المؤرخ صاحب « الكامل » ، والمحدث مؤلف « النهاية في الحديث ». ولد سنة ٥٥٨ للهجرة ومات سنة ٦٣٧ (١١٦٣—١٢٣٩ م) وسمي الصاحب لانه ولي وزارة الملك الافضل نور الدين علي بن الملك الناصر صلاح الدين الايوبي . قيل ولم تحمد سياسته . فيكون ديوان رسائله هذا قد خُطَّ بعد وفاته بتسع عشرة سنة فقط . وهو ما يزيد في قيمة الجزء الباقي منه فضلاً عما اتصف به من صحة الضبط في الغالب وحسن الخطّ .

وهذه الدواوين التي جمعت فيها الكتابات السلطانية والرسائل الخاصة من اقلام الوزراء المنشئين . وبلغاء كتاب المصطلح الشريف ، هي احق بان تدعى سجلّات التاريخ . ويجب ان تعدّ من اصوله . وان يعوّل عليها في تثبت اخباره ونقدها ومعارضتها ، لولا كثرة جمجمتها احياناً وقلة طحنها ، وضياع الحقيقة فيما بين قشور الفواصل والاسجاع ، وكون جانب منها تحت غشاء القوالب اللفظية . على ان ضياء الدين بن الاثير هو من اقل الكتاب فضولاً ، وافرهم محصولاً . ورسائله ، وان كانت لا تخلو من المبالغة والاطناب ، شأنَ كل المترسلين في عصره ، فهي تتضمن بعض الشروح والاشارات الجديرة باسترعاء نظر المتأدب لتفهم الوقائع واستطلاع الاحوال التي تقصر المؤرخون في وصفها او اغفروا عن ذكرها . وفي هذا الجزء منها طائفة سنورد مثالين منها اخترناهما لعلاقتهما بتاريخ دمشق . وهذه عناوين الكتب المروية في هذا الجزء ننقلها برمتها لفائدتها وطرافة قسم منها ليرجع الباحث اليها عند الحاجة :

١ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اخوانه الصالحين وعباد الله المخلصين جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن موعظة وتخويفاً (ص ١–٤) .

٢ كتاب كتبه عن نفسه الى تاج الدين ابي اليمن زيد بن الحسن الكندي . رحمه الله تعالى . جواباً عن كتاب ورد اليه منه وهو يومئذٍ بمدينة الموصل وارسله اليه الى دمشق المحروسة (٤–٧) .

٣ رقعة كتبها عن نفسه الى بعض الفضلاء جواباً عن رقعة وردت منه اليه يلتمس شيئاً من رسائله . وكتب الجواب في ظهرها (٨–١٠) .

٤ رقعة اخرى في المعنى المتقدم المشار اليه . وهو جواب للجواب عن الرقعة الاولى (١١–١٣) .

٥ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء ممن استجد مودته في سفرة سافرها معه . وضمّنا الكتاب اول كتاب صدر عنه اليه (١٣–١٥) .

٦ كتاب كتبه عن الامير الكبير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل الى صدر الدين شيخ الشيوخ ببغداد المحروسة . وكان قد سعى به اعداؤه الى الملك القاهر عز الدين مسعود ابن مودود صاحب الموصل حتى امسكه واودعه السجن . فنال دولته بذلك ضرر عظيم . واختبط امور الاجناد والرعايا . وخرج عن يده كثير من البلاد . واشرفت مملكته على الزوال . فعاد فاستدرك الفارط واطلقه من السجن وقلده امر المملكة على ما كان عليه واعظم . وكشف عن امره فعلم براءته مما رمي به . فانتقم من اعدائه الذين سعوا به ولم يطل لهم عمر . واصدر هذا الكتاب الى صدر الدين يبشره بخلاصه . لان صدر

الدين كان صديقه صداقة مرفوعة المقاصد . راسية القواعد . واخذ كتاب الديوان العزيز في امر خلاصه (١٥-٢٠) .

٧ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الفضلاء يتضمن شكوى الزمان في تقلب حالاته واضاع ولاته (٢١-٢٣) .

٨ وكتب ايضاً توقيعاً عن السلطان الملك الافضل ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى باطلاق المكوس والمظالم بدمشق المحروسة عند مصيره اليه (ص ٢٤-٢٦) (وليس فيه اقل ذكر وتفصيل لهذه المكوس) .

٩ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب الى عمه السلطان الملك العادل ابي بكر بن ايوب بسبب ترغة ترغها بينهما الشيطان . وذلك في شهر رجب المبارك سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وزعم الملك العادل ان الملك الافضل نقض عهده وباطن عليه جنده . فانتزع بسبب ذلك ما كان بيده من البلاد الفراتية . وكان جرى بينهما قبل ذلك وقائع وزعازع (٢٦-٣٢) .

١٠ وكتب ايضاً عن الملك الافضل علي الى الملك العادل ابي بكر كتاباً ثانياً في المعنى المشار اليه . لان الكتاب المتقدم لم يرجعه عما كان اصرّ عليه من حقده وبغيه عليه (٣٢-٣٨) .

١١ كتاب آخر ثالث كتبه عن الملك الافضل الى عمه الملك العادل وضمّنه شرح حاله مع عمه . وذلك انه لما توفي والده المولى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب . رحمه الله تعالى . ألقى يده الى عمه المشار اليه الملك العادل دون جميع اخوته وبذل جهده في الاحسان اليه بنفسه وماله وعساكره . فكان ثمرة ذلك انه خدعه وانتزع دمشق منه . ثم قدّر الله بعد ذلك موت السلطان الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين صاحب مصر . وملّكها الافضل اخوه بعده . فجمع العساكر وخرج الى الشام فحصر عمه الملك العادل بمدينة دمشق مدة طويلة . ثم انقلب الامر عليه واستولى الملك العادل على مصر . وحلف لابن اخيه الملك الافضل على بلاد بارض الجزيرة . ثم نكث به .

وهذا اول الكتاب بعد البسملة :

« ندمتُ على امر مضى لم يُثِر به نصيح ولم يجمع قراه نظام

رب وثوق يقود الى الندم وتودد يدعو الى التهم وقد يدل الحلم على صاحبه ويطمع في جانبه ولولا ذلك لما استُلين عودي فصُجِم واستُضعف ركني فهُدِم ولا اشكو ما اشكوه الا الى عمي وصنو ابي الذي نقره نفري وهو الذي قلب فُواقي على وتري وعلمني التظلم من الايام وارأني ضوء النهار بعين الإظلام ولقد اضاع فيّ احسانه وخالف في قطع رحمي سنّة الله وكتابه وجعل ايامي منه كيوم البعث الذي يتناكر الناس في انسابه واسبابه هذا وقد علم اني اتخذته ابّاً ارجو برّه ومولى اطمع امره وكنت له كنانة لا يطيش لها سهم ولا يوسى منها كلم ولم ازل ساعياً في تقويم أوَده واعلاء كلمته ويده واتعبى بي الجد في ذلك الى اني شاققت بني ابي لمواصلته وقابحتهم لمجاملته وشققت في توخي إيثاره عصاهم وجعلت ادناهم الي اقصاهم حتى اصبحت من

إخانهم عربيًا وكنت غيبيًا فصرت بكريًا هذا ولم يزل يحذرني منه النصاح ذوو السرائر وأولو الابصار والبصائر ويقولون هذا يخدعك بكيده ويحملك حبًا لشبكة صيده فما نتحت لاقوالهم سمعا ولا وجدت لها مني موقعا ولا وقعا بل مضيت على ما انا عليه من شد يدي بحالاته وعقد قلبي على موالاته وقلت هذا العضد وهذا الساعد وهذا العم الذي اذا مضى الوالد فهو الوالد وقد بدأته بالاحسان الذي اظن انه اهله وليس جزاؤه عند الاحرار مثله ولم اطم انه خمر بواديه ونصب لي اشراك عواديه فشد ما نبذ ذمة الرحم خلفه ظهريًا واتخذ العهد الذي في عنقه شيئًا فريًا وانقلب ما كان يظهره من طيب الاقوال الى ما كان يضمره من خبيث الافعال فلقيت منه ما لقي جبير ام عامر وكافأني مكافأة النساح للطائر وانا راجٍ ان يقاتله احساني الذي كفره وما شكره ونسيه متعمدًا وما ذكره فان للاحسان جنودًا ترمي من غير سهام وتقاتل في كل معترك بحسام وتؤيد بالنصر في كل مقام ومن شأنها انها تناضل ولا يشعر بنضالها وتسري فتحول بين الظلمة وآمالها فكم ثنت من يد قبضت على سيفها ودعت الى حينها وما امسكت يد عنان جود وعنان جحود الا غدا صاحبها صريحا ولم يجد له من دون الله تيما فينبغي له ان يراجع نظره في ما اتاه وان يجتنب قول موسى لفتاه ولا يكن ممن اطمأنّ الى مسالمة زمانه واطراد امر سلطانه فانها الايام التي ما سالمت الا حاربت ولا واصلت الا جانبت ولا تأتي همومها الا من جهة افراحها كما لا تأتي ظلمة ليلها الا من مطلع صباحها ولطالما اعجزت قديرا وزعزعت سريرا واذهبت نعيمًا وملكًا كبيرا وعادًا وثمودًا واصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرا فان كان بعد العهد جهلاه انساه الاعتبار واوجب له الاغترار فلينظر الى من رآه عيانا وكان له سلطانا وهو اخوه الذي خفقت في الآفاق ذؤابة علمه واستجابت الدول لامر سيفه وقلمه وكان اثبت منه ملكا واوسع بلادا واكثر اموالًا واولادا فشت الايام على دولته فمحت آثارها واخفت اخبارها هذا ولم يزل يجيل قلوب الناس على الحسنى ويغرس فيها ما يرجو منه طيب المجتنى وقد رأيت ما فعلوه في بنيه وما بالعهد من قدم وما بالقوم عن ذلك الاحسان من صمم فكيف ترجو انت ح الاساءة ان يشكروا بيبك او يحسنوا الملاقاة لك في عقبك هيهات تلك اطماع النفس المائنة ودواعي الهوى الخائنة وانا اعظك ان تكون ممن تولى فقطع رحمه وخفر ذمته فان كل دنيا ستنصرم وكل من حكم عليه ظلمًا سيحتكم « والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون » وقد بلغني انه يتوعدني بنكره ويوقد على احشاء صدره وانه تألى على الله ليأخذنّ على يدي وليلبسنّ يومي بندي ويوشك انه اخذ من الله موثقًا بالمخلود وتابته الاقدار على اقتسار الجدود ومع اليوم غد وما من يد الا ولله فوقها يد وكم بنى في هذه الارض من باغٍ فتوجّ بالتدنيس والتدمير وحالت الايام بينه وبين ما يقدره من المقادير « وكأين من قرية امليتُ لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير » ولئن مزقتني منه هذه النبوة التي طاشت لها الاحلام وزلزلت فيها الاقدام فما خفّ لها الآن جبلي ولا تصرفتُ فيها بحولي ولا بحيلي لكنني قد مددت الحبل منه

الى آخره وارتقبت ما تصير اليه عقبى مصايره وانا ادعوه الى كلمة سواء بيني وبينه ان يبقي احدنا على صاحبه ولا يذهب غير مذاهبه .

فان تدعني للشر أسرع وان تهب بصلحي فقد ابقيت للصلح موضعا

ويعز علي ان اعضد شجرة انا من اصلها او أقفر دارًا انا من اهلها فاكون في ذلك كمن جنت كفه على بنانها وعينه على انسانها واصبح اعق من غدا (ممن فدى ؟) بهجته الدامية عن يده الرامية ولولا ذلك لأثرتها فتنة تخشن مراكبها وتمر غوارجا وتفيح عواقبها وتكون دخانًا يغشى الناس منه عذاب اليم لا ينجو منه برّ ولا اثيم ولا بريء ولا سقيم ولكنني قد وضعت له جنبي وكففت عنه غربي وفارقت الاحداث وطلقتها ولزمت الدعة وتطلقتها فلا يبعثني على مراجعة الحال المطلقة ولا يحملني بعد سبيل الطاعة على السُبُل المتفرقة فقد أتيح للمضطرّ ان يركب كل محذور محظور ويستخلص حقه بالحق وبالزور ويدفع ظلامته بما وجد من السبيل وهو معذور واذا أُحرج الحليم خرج من شِيَمه واستُخفيت النار من وارق سَلَمه فلا يظن ان قدحي لباريه ولا ليلي لساريه وقد طال ما بُلي عزمي فوُجد نفّاذًا في الاسداد طلاعًا للاعباد فما قدح الا امرج ولا كوى الا انضج ولا جهّز بعثًا من بعوثه الا غنيت آراء عن جنود تُعَد او عصفت سيوف من رؤوس رُكّد وذلك العزم باقٍ لم يَبِنْ ولم يَبِنْ ومتى استطارت ناره ملأت الاقطار وسبقت الحذار وقلّبت القلوب والابصار والتجربة تنصحك ان (لا) ترقط شرا قد استدام مكانه ومنامه وكره الله والناس ان تستعاد ايامه فان ذلك السيف في يد القاتل وربما زاد الآجل على ما تقدم من العاجل والسلام»
(ص ٢٩-٤٧)

وهذا الكتاب، مع بلاغة حجته وصدق كلمته ، وحدّة لهجته ، لم يدفع عن الافضل ظلم «صنو ابيه» قضى العادل على غلوائه ، دون ان يثنيه عن متابعة الاساءة سابق احسان الافضل اليه. ولا بأس ان نذكر انه لما مات صلاح الدين ، كان الملك العادل بالكرك . فامتنع فيه وأبى ان يحضر عند احد من اولاد اخيه . فارسل اليه الافضل غير مرة يستدعيه فوعد ولم يفعل . وهمّ صاحب الموصل اتابك عز الدين ، ان يسير الى بلاد العادل الجزريّة لينتزعها منه فجهّز الافضل عسكرًا من عنده وارسل الى صاحبي حمص وحماة ، والى اخيه الملك الظاهر بحلب ، واعان عمه بما اجتمع من الجنود ، وانفذها معه ليمنع البلاد الجزرية . وفي سنة ١١٩٥/٥٩١ اراد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ان يحاصر دمشق فاستنجد الافضل بالعادل فسبقه الى دمشق . وكان الافضل لثقته به قد امر نوّابه ان يمكنوه من دخول القلعة . فما عتم الامراء ان انقلبوا على الافضل ،

وقرّروا ان يسلّم دمشق لعمه ، ويملك بدلًا منها الديار المصرية . فارسل العادل سرًّا الى الملك العزيز ان يثبت في مكانه وضمن له منع الافضل . ولما عاد الافضل الى دمشق ، اقام العادل بمصر عند العزيز ، واقنعه بالخروج معه في السنة التالية وحصروا دمشق ودخلاها بخيانة من احد امراء دمشق استمالة العادل ففتح لهم الباب الشرقي . وانفرد العادل بدمشق ، واعاد العزيز الى مصر ، وتسلّم جميع الاعمال من الافضل ، واعطاه قلعة صرخد فقط . وكان اخوه الظاهر غازي ، ملك حلب ، قد ارسل اليه قبلًا يقول له : أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيء علينا منه خير . ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وانا اعرف به منك واقرب اليه . فانه عمي مثل ما هو عمك وانا زوج ابنته . ولو علمت انه يريد لنا خيرًا لكنت انا اولى به منك . فقال له الافضل : انت سيّئ الظن في كل احد . اي مصلحة لعمنا في ان يؤذينا ».[1]

ولما مات العزيز بمصر ، وخلفه الافضل عليها ، سعى العادل فملكها منه ايضاً سنة ٥٩٦ . قال صاحب الكامل الذي لخّصنا عنه ما سبق : « ومن اعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قطّ الا واخذها منه عمه العادل . فاول ذلك ان صلاح الدين اعطى ابنه الافضل حرّان والرها وميافارقين سنة ٥٨٦ فسار اليها . فلما وصل الى حلب ارسل ابوه الملك العادل بعده فردّه من حلب واخذ هذه البلاد منه . ثم ملك الافضل بعد وفاة ابيه مدينة دمشق فاخذها منه . ثم ملك مصر بعد وفاة اخيه الملك العزيز . فاخذها منه ايضاً . ثم ملك صرخد فاخذها منه . واعجب من هذا انني رأيت بالبيت المقدّس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها . فقال القس الذي بالبيعة : هذه كان قد اخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق . ثم ان العادل اخذها بعد ذلك من الافضل . طلبها منه فاخذها . وهذا غاية وهو من اعجب ما يحكى ».[2]

ومما تقدّم يتضح جليًّا ان الملك العادل كان ذا مكر وغدر وخديعة . لم يشكر احسان اخيه صلاح الدين ولم ينصفه في اولاده . بل ترقّب وفاته ليحقّق

١) الكامل ٢ : ٤٨

٢) الكامل ٢ : ١٣٥

اطاعه في ملكه . فحوّله عنهم الى اهل بيته .. ولذلك فهو في نظر التاريخ المجرّد عن الهوى اجدر بان يدعى الملك « الظالم » .

١٢ وكتب الى السلطان الملك الافضل علي بن يوسف رحمه الله تعالى يهنيه بعام جديد وذلك في سنة احدى وتسعين وخمسمائة (ص ٤٧-٤٨) .

١٣ كتاب كتبه عن نفسه الى مخدومه الملك الافضل ابي الحسن علي بن يوسف وقد سيّره رسولًا الى صاحب الروم من حصن سيساط وذلك في سنة ثمان وستمائة فكتبه اليه من بعض الطريق وكان الزمان شتاء يصف البرد وغيره (٤٨-٥٢)

١٤ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي بن يوسف الى الملك العادل نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل رحمه الله . يسلّي عن هزيمة هزمها في مصافّة صافنها (كذا) . وذلك يوم السبت تاسع عشر شهر شوال من سنة ستمائة . وسبب ذلك انه خرج الى نصيبين وحصر قلعتها واشرف على اخذها وهي يومئذ لابن عمه الملك المنصور قطب الدين ابن اتابك صاحب سنجار . ثم عاد عنها بغير سبب ولا مزعج الا امر يريده الله . فاستنجد صاحبها الملوك المجاورين كصاحب جزيرة عمر .. وصاحب دارا . وصاحب ماردين . وصاحب آمد وديار بكر . وتزلوا نصيبين بالجملة الكبيرة . وطلب صاحب نصيبين من صاحب الموصل المصافّ فاجابه اليه . واتفق ان يكون بين نصيبين والموصل على قرية تعرف بيوشرّى . فاجتمع عساكر صاحب نصيبين . ونجده كلهم عليها وسبقوا الماء وملكوه . واسرى اليهم نور الدين من الموصل فاخذ ثلاث مراحل في مرحلة واحدة إدلالًا بقوة عسكره . فحين وصل ونزل لم يلبث خصومه ان ركبوا وطلّبوا وقصدوه . فلم يجد بدًا من لقائهم فلم يثبت لهم عسكره لتعبهم وضعفهم . فكان ذلك سبب الهزيمة (٥٢-٦٠) .

١٥ كتاب كتبه عن نفسه الى القاضي الامام تاج الدين ابي الفضل احمد بن علي السنجري قاضي مدينة ملطية . وكان بينها من الود شيء عظيم . وهو جواب كتاب ورد منه يخبره بمرض لحقه وعافية تداركه الله بها . فصدر هذا الكتاب بتضمن الهناء بالبرء . ولم يكن بلغه حديث المرض حتى سمع خبر العافية (٦٠-٦٣) .

١٦ كتاب كتبه عن نفسه الى الصاحب الوزير صفي الدين ابي عبدالله محمد بن شكر وزير الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب شفاعة في حق الشيخ الامين زكي الدين ابي عبدالله بن سلامة الزرقي وهو من مشاهير التجار الدمشقيين (٦٣-٦٧) .

١٧ كتاب كتبه عن نفسه الى الصاحب جمال الدين بن شدّاد قاضي قضاة حلب واعمالها . وكانت الكتب انقطعت بينهما (٦٧-٦٩) .

١٨ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي بن يوسف بن ايوب الى اخيه السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب حرسها الله تعالى . عناية بالصدر الاجل ظهير الدين ابن الدامغاني الذي كان ابوه قاضي القضاة ببغداد وسائر العراق . وقد

نبا به الزمان وخرج من بغداد مسترزقاً (٦٦-٧٣) .

١٩ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان جواباً عن كتاب ورد منه سنة اثنتين وستمائة (٧٣-٧٦) .

٢٠ كتاب كتبه عن نفسه الى السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف صاحب حلب حرسها الله تعالى . يتضمن الشفاعة في امر شخص من العمال بديوان حلب . وارسله اليه من حصن سيساط . وذلك في سنة ثلاث وستمائة (٧٦-٧٩) .

٢١ كتاب كتبه الى الصاحب بهاء الدين ابي الحجاج يوسف بن رافع بن تميم قاضي القضاة بالشام عن نفسه . يتضمن التهنئة ببعض الفقراء . كان مؤذناً واحب الاشتغال بالعلم . وسأل كتب هذا الكتاب اليه (٧٩-٨٣) .

٢٢ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان (٨٣-٨٤) .

٢٣ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . وكانت المكاتبة انقطعت بينهما مدة يسيرة . وسيّره اليه من حصن سيساط وقد عرّض فيه بشكوى الزمان (٨٤-٨٧) .

٢٤ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . وقد وصله عتبه لانقطاع كتبه عنه . فاصدر هذا الكتاب معتذراً عن الانقطاع والبطء (٨٧-٨٨) .

٢٥ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اصدقائه بالموصل . وكان فارقه وسار الى خدمة السلطان الملك الافضل نور الدين علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب بحصن سيساط . فوصل المشار اليه رسولاً الى خدمته من حلب . ثم عاد الى الموصل . وهذا الكتاب جواب عن كتاب وصل منه بعد عوده (٨٩-٩٣) .

٢٦ كتاب كتبه عن السلطان الملك الافضل علي بن يوسف الى اخيه الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب المحروسة بسبب الشفاعة في امر شخص من عمال الديوان السلطاني بحلب المحروسة (٩٣-٩٦) .

٢٧ كتاب استملاه منه الامير الجليل مظفر الدين مستقر امير الحاج العراقي الامامي الناصري . وذلك انه لقيه بمدينة حلب في سنة سبع وستمائة . وكان قد أبَق من خدمة الديوان العزيز الى الشام . وكان سبب إباقه ان الوزير بالحضرة الشريفة قصده قصداً اراد فيه هلاكه . فلم يمكنه المقام على ذلك فهرب . فلما عزل الوزير وتولى غيره اصدر عنه هذا الكتاب (٩٦-١٠٣) .

٢٨ كتاب آخر في المعنى ايضا . كتبه عن لسانه الى المعروسة ببغداد (١٠٣-١٠٦) .

٢٩ كتاب كتبه عن السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب الى الديوان العزيز المقدس النبوي عظّمه الله تعالى . جواباً عن كتاب ورد منه وقد ارسل اليه سراويل الفتوّة (١٠٦-١١١) .

٣٠ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان . جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن الاستعطاف على من الفى صداقته (١١١ - ١١٥)

٣١ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض اصحابه الماشرين من اهل مصر . يقال له مؤيد الدين بن

الجيهاني . وكان مغربي الاصل مصري المولد . وعنده جزء كبير من المقلاعة . فحج المؤيد الى بيت الله الحرام . وجاور بمكة سنين . ثم وصل بعد ذلك الى مدينة حلب المحروسة . وكان قبل الحج بمشق صبياً اسمه عبد القادر . وشهر به . فعرض بذكره في الكتاب (١١٥ – ١٢١) .

٣٢ كتاب كتبه الى صديق له من اخوانه الصادقين يعزّيه ببنت له توفيت (١٢١ – ١٢٤) .

٣٣ كتاب كتبه عن المولى السلطان الملك الظاهر غياث الدنيا والدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب رحمهم الله تعالى . الى الديوان العزيز النبوي ببغداد . جواباً عن كتاب ورد منه مبشّراً في سنة ثمان وستمائة عن الطائفة الاسماعيلية انها اسلمت بحصون ألَمُوت من بلاد العجم . وهم الحاكمون على الحصون الذين بالشام منهم بجبل السمّاق (١٢٤ – ١٣٠) .

٣٤ كتاب كتبه الى بعض الاخوان ليصف فيه مستترهاً حضر فيه في بستان واخوان . ومكان وامكان . وكان ذلك في زمن الربيع . وقد ذكر ذلك . ويصف الشطرنج الذي لعب الجماعة به (١٣٠ – ١٣٨) .

٣٥ كتاب كتبه الى بعض الاخوان جواباً عن كتاب ورد منه . وقد ضمّنه ذكر المشيب (١٣٨ – ١٤٣) .

٣٦ كتاب كتبه الى بعض الناس يتضمن الهناء بشهر رمضان على حكم التهكم والاستهزاء (١٤٣ – ١٤٥) .

٣٧ كتاب كتبه عن نفسه الى السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف صاحب حلب . عناية ببعض ارباب البيوت كانت نعم الله عليه جمة فاذهبها الدهر (١٤٥–١٤٩) .

٣٨ كتاب كتبه الى بعض الاخوان . جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن استصلاح مودة (١٤٩ – ١٥٣) .

٣٩ كتاب كتبه تقليداً بولاية مدينة دمشق المحروسة من ديوان السلطان الملك الافضل نور الدين ابي الحسن علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمهما الله تعالى . وذلك في سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١٥٣ – ١٦٨) .

ولهذا التقليد السلطاني مكانة سنيّة بين سجلّات دمشق لما ورد فيه من التنبيه على ولع اقوام من سكانها بشرب الخمر . وتناول الرشوة بين عمّال الديوان . وخصوصاً لما تضمّنه من الوصية والرفق باهل الذمّة . ولذلك نقتطف منه الفصول الآتية لفائدتها الجلّى في تاريخ الدولة الايوبية . ودلالتها على بعض الاخلاق البلدية :

« من المهم عندنا حدّ الخمر . فان الناس قد تهافتوا على شربها وإدمانها وجاهروا في اقتنائها وعصيانها ولم يردعهم الحد عليها عن تورد مكانها ونحن نأمرك ان تقتلع شرها من اصله

وتسدّ على شيطانها ابواب شبله ولا يتم ذلك الا بان تجتهد في منع حلّها وتحريم حلّها واراقة زقاقها ودنانها واستهلاك الدوابّ الحاملة لها باستهلاك اثمانها وان تتعهد قبناها بالنفي والاشتهار وهتك الاستار وتُنحي على آلاتها بقطع الاوتار وكسر كل ما كان من دفّ او مزمار واستعينْ على امرك هذا بكل محتسب يتولى الامر بالمعروف وبالعلماء من رجال الله الذين ينظرون بنوره من وراء السجوف ويعملون له لا لامر مرجوّ ولا لامر مخوف وترجو حينئذ ان يزول هذا الداء وان كان عضالا واذا نظر الله في امرنا في صدق النية كفى المؤمنين قتالا .

« ومن الرعية الذين تحت يدك اهل الذمة . وهم قوم سكنوا بين اظهر المسلمين سكنى الاذلال وبذلوا الجزية فصاروا جا مباح الدماء والاموال فعليك ان تلي عليهم ظل العدلة وتترلهم حيث انزلهم الله ورسوله من المنزلة وان تحفظ كلًّا منهم في نفسه وعرضه ولا تحمّله ثقلًا يخفّ عليه حمل بعضه وان تحفظ عليه عهده من النقض الا في سبب يحكم بنقضه ومن احسان السيرة فيهم الّا تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته ولا من شيخ حال الضعف بينه وبين الانتفاع به كما حال بينه وبين منفعته وهذا المقدار من هذا الوجه قد يورك في دينارهم ودرهمه وخير ما صرفه المرء المسلم في ملبسه ومطعمه فليفرّق في الصدقة التي تربده طيبا ولا تجعل له في الحسنات مثلًا ولا ضريبا (ص ١٦١ – ١٦٢) .

وههنا كبيرة هي من اعظم الكبائر وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر وذاك ان ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكما وتختم على القلوب حتما وسمّاها الله سُحتًا وانما وانت ينبئك عنها دينك الذي هو عصمة امرك وعلو قدرك الذي يقضي بعلو قدرك ولكن ربما استزل الهوى بعض اصحابك فملأ جا عينه وحال بين الحق وبينه فأحصِ على هؤلاء الانفاس عددا واملك بين ايديهم ومن خلفهم رصدا وكن كالطائر الحذر الذي يظن كل شيء حجرا وبدا (ص ١٦٤) .

وتعليقًا على هذا التقليد الذي يجب ان يُعدّ من حسنات الملك الافضل وفضائله ، وزيادة في الشرح والبيان ، ننقل هنا ، على سبيل التأييد والتمثيل ، بعض ما وقفنا عليه من اخبار الخمر والمسكرات بدمشق . وقد اغضى عن هذا الداء العضال كثير من الملوك والحكام . وادخله بعضهم في جملة ما يُضمَّن في الديوان من الفواحش والمنكرات . حتى زعم سبط ابن الجوزي ان الحاصل من رسوم الخمر والخواطي والمكوس والمظالم ، في زمن الملك العادل سيف الدين ، بلغ مئة الف دينار[1] . ولا يخفى ما في ذلك من المجازفة والتهويل . ولما ابطل العادل ، سنة ٦١٢/١٢١٥ ، ضمانة الخمر والقيان « كان الذين يريدون شرب

١) ذيل الروضتين لابي شامة . خزانة باريس ٥٨٥٣ ص ١٣٠

الخمر يتكلفون الخروج الى ضياع جبل سنير (القلمون) في صيدنايا ومعربا ونحوها .[1] وكان واليه المعتمد « اقام رجالا على عقاب قاسيون وجبل الثلج وحوالي دمشق بالجامكية والجراية يحرّمون احدًا يدخل دمشق بمسكر . فكان اهل الفساد يتحيّلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول . ويدخلون بها الى دمشق فمنع ذلك » .[2] ولما خلف العادل ابنه الملك المعظّم ردَّ المكوس والخمور وما كان ابطله ابوه واعتذر بقلة المال ودفع الافرنج .[3]

وفي سنة ٦٨٠/١٢٨١ ضُمّنت الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومُشِدّ . وسمي هذا الديوان « الجهة المفردة » . وضُمّنت في كل سنة بسبع مئة الف درهم ، وتزايد فيها الضُمّان حتى بلغت الفي الف درهم في كل سنة . فقام بابطال ذلك جماعة من العلماء والصلحاء .[4]

وفي سنة ٦٩٩/١٣٠٠ ضمّن قبجق نائب دمشق « الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها . وجعلت دار ابن جرادة خارج باب توما خمارة وخانة ايضًا وصار له في كل يوم الف درهم » .[5]

وفي سنة ٧٤٤/١٣٤٣ « قدم الخبر (لمصر) بكثرة الفساد بدمشق . والمجاهرة بالخمور وانواع الفسوق . وقلة حرمة نائبها الامير طقز دمر » .[6]

وفي سنة ٧٤٦/١٣٤٥ « ضرب النائب واليَ البرّ نجم الدين بن الزبيق وعزله عن الولاية . وكتب عليه محضرًا ان له خانًا يبيع فيه الخمر على جاهه » .[7]

وفي سنة ٧٩٨/١٣٩٥ « أُخبر قاضي القضاة ان خانًا بالقرب من قبّة الشحم

١) ذيل الروضتين لابي شامة ، ص ١٩٧

٢) ذيل الروضتين لابي شامة ، ص ١٣٠

٣) ذيل الروضتين لابي شامة ، ص ١٣٢

٤) البداية والنهاية لابن كثير . باريس ١٥١٦ ، ص ١٣١ ؛ ونهاية الادب للنويري . باريس ١٥٧٨ ، ص ١٣٢

٥) البداية والنهاية لابن كثير . باريس ١٥١٦ ص ١٧٣

٦) السلوك للمقريزي خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ١٤٤

٧) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨ ، ص ٧٣

(مأذنة الشحم اليوم) فيه خمور كثيرة . ويباع فيه الخمر جهارًا . . . فاقتلعوا الحوانيي وكانت مدفونة في الارض عمارة خمرًا . . . وكلّم النائب الحاجب كلامًا غليظًا . ونسبه الى حماية الخمور وغير ذلك . وسبّه وشتمه » .[1]

وفي سنة ١٣٩٨/٨٠٠ « اراق النائب خمورًا كثيرة ظفروا بها . واردة في الليل نحو مئتي حمل . . . وتواقعوا عند المزّة . واخذوا الخمر . وكانت فيما يقال لامير يقال له يَلْبُغا الاشقتمري مقدم الف » .[2]

وهذه الاخلاق والعادات لم تنفرد بها دمشق ومدائن الشام . بل كان منها وقتئذٍ بمصر ما هو اقبح .

٤٠ كتاب كتبه الى اخيه مجد الدين ابي السعادات تغمده الله برحمته يعزيه بسقط (١٦٩–١٧١) .

٤١ كتاب كتبه الى بعض الاصدقاء بالموصل من مدينة وكلّفه ان يطلب له نسخة الكتاب الذي كتبه شمس الدين علي ابن عمه رحمها الله عن السلطان الملك القاهر عزالدين مسعود صاحب الموصل الى ديوان الخلافة المقدسة المطهّة الامامية الناصرية ببغداد شرفها الله تعالى . في التعزية بالامير الكبير عدة الدنيا والدين محمد بن مولانا الامام الناصر لدين الله امير المؤمنين . وهو حينئذ ولي العهد . وكانت وفاته في سنة اثنتي عشرة وستمائة . وهذا الكتاب كتبه يداعب به ابن عمه الكاتب المشار اليه . وهذا الرجل المكتوب اليه هذا الكتاب هو رجل تاجر . وله مصرة بالموصل . وهو يتردد الى مجلس القاضي . وقد عرض بذلك في آخر كتابه (١٧٤ – ١٨١) .

٤٣ كتاب كتبه الى بعض العظماء يشفع به عنده في صاحب كان له فغضب عليه (١٨٣–١٨٥) .

٤٤ كتاب كتبه الى صديق له بنصيبين . وعرّض فيه بذكر وخمها . وبذكر الورد ايضًا . فانها معروفة به (١٨٦ – ١٨٨) .

٤٥ كتاب كتبه الى بعض الاخوان . جوابًا عن كتاب ورد منه يتضمن شكوى الزمان وخيانة الاخوان (١٨٨ – ١٩٤) .

٤٦ كتاب كتبه الى الامير الكبير ناصرالدين احمد . والى اخيه الامير الاجل علاء الدين محمود ابن الامير الكبير مجاهد الدين شفاعةً في الاجل الكبير فخر الدين ابي العز بن الاثير العمراني رحمهم الله . وذلك لان فخر الدين ادّان من الامير علاء الدين دينًا . وتأخر وفاؤه عن الشرط المقرر والامد المقدر فتقاضاه ثم قاضاه وحبسه (١٩٤–٢٠٠) .

٤٧ وكتب الى الامير سيف الدين ابي عبد الله بن تمرك . وهو من الامراء الدمشقيين . وكانا

---

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩ ، ص ١١٢ – ١١٣

٢) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٩، ص ١٢١

كلاهما بدمشق المحروسة وكانا متلازمين لانه كان من اكبر اصدقائه . فمضت ايام لم يلقهُ فيها . وقد عرّض بالرقعة بذكر صاحبيه نجم الدين بن الجزري (٣٠٠-٣٠٢)

٤٨ رقعة كتبها اليه يشكر اياديه ويثني على معاليه . لاجل سجادة ارسلها اليه (٣٠٣-٣٠٤)

٤٩ وطلب منه الامير علاء الدين محمود ابن الامير الكبير المنعم مجاهد الدين برتقش العادي ان يملي عليه كتاباً يكتبه عن نفسه الى الصاحب مجد الدين البهنسي وزير الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل ابي بكر بن ايوب في امر املاكه المتنزعة منه ببلاد نصيبين وبلاد الخابور الجارية في مملكة الملك الاشرف . وذكر ذلك في معرض السؤال في سنة اثنتي عشرة وستمائة في شهر رجب (٣٠٤-٣١٧)

٥٠ كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الملوك في التهنئة بمولود ولد له (٣١٧-٣١٩)

٥١ كتاب آخر في تهنئة بمولود كتبه عن نفسه الى بعض الملوك الاكابر ايضا (٣١٩-٣٢٠)

٥٢ كتاب آخر في التهنئة بمولود كتبه عن احد الملوك الاكابر الى الخليفة الامام الناصر لدين الله رحمه الله (٣٢٠-٣٢٣)

٥٣ فصل من كتاب (هنا ضرم) (٣٢٣-٣٢٤)

٥٤ (كتاب كتبه الى) السلطان الملك الافضل نور الدين علي بن يوسف بن ايوب . وارسله اليه الى حصن صرخد (٣٢٥-٣٢٧)

٥٥ كتاب كتبه السلطان الملك الافضل نور الدين رحمه الله جواباً على هذا الكتاب وسيّره الى ضياء الدين الى الموصل (٣٢٧-٣٣٠)

تم الجزء الثاني من ترسل المولى الصاحب ضياء الدين بتاريخ غرة صفر سنة ست وخمسين وستمائة .